دوافع الاستشراق وأثرها في تعلم العربية والحفاظ عليها

د. أحمد عبد المنعم حالو

مهاد تاريخي:

تحظى اللغات بمكانة مرموقة في نفوس أبنائها، ذلك أن اللغة هي أداة تلقي المعرفة، وأداة التفكير، وصلة الوصل مع العالم الخارجي، كما أنها تمثل ذاكرة الأمة بل هي مستودع تراثها وقيمها، وما يحفل به تاريخها، وهي وسيلة التواصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، وهي على العموم مرآة الأمة، وصورة حضارتها على مرّ الأيام والسنين. أضف إلى ذلك أن العربية فيما نظر إليها أهلها ليست لغة عادية، بل هي لغة مقدسة اختارها الله عز وجل لتكون لغة القرآن الكريم، وبها نشر النبي العربي دعوته، فأصبح تعلمها للمسلم فرضاً وعبادة وتقرباً إلى الله عز وجل. وبهذه النظرة المتأصلة في كينونة الذات العربية (فطرة وسليقة) دأب العرب على نقل لغتهم من تلاحم أجيالهم جيلاً إثر جيل، ووسيلتهم في ذلك المشافهة مع اليسير من الكتابات وبعض الشعر يدونونه في عواصمهم. واللافت في أمرهم هو هذه النقلة النوعية للإقبال على اللغة والعناية بها بعد مجيء الإسلام، فقد ازداد تعلق العرب بلغتهم، وحرصهم عليها، ولاسيما لما غدا كتاب الله يُتلى بينهم آناء الليل وأطراف النهار، فتمسكوا به أيما تمسك، وتعمقوه حفظاً ودرساً وتفسيراً. ومما رُوي عن العرب في هذا المجال ما ذكره السيوطي في كتابه (الإتقان في علوم القرآن)(١) وكررته الدكتورة عائشة عبد الرحمن في كتابها (الإعجاز البياني في القرآن ومسائل ابن الأزرق)(٢) أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس رضي الله عنه عن معاني كلمات وألفاظ قرآنية بلغت نحواً من مئتي مسألة، فكان ابن عباس يجيب عنها بشواهد من الشعر الجاهلي، الأمر الذي حرك رواة العربية لجمع الشعر الجاهلي، وحملهم على متابعة حفظة الشعر الجاهلي من الأعراب في صحرائهم، وفي أثناء زيارتهم لحواضر العراق (البصرة والكوفة) وكل ذلك خدمة لكتاب الله عز وجل، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الذي أصّل لهذا المنهج التلاحمي بين القرآن واللغة العربية، وهو القائل: «أيها الناس، عليكم بديوانكم لا تضلوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم»(٣)، ونحوه ما رواه أبو عبيدة في (فضائله) من أن ابن عباس كان يُسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر يستشهد به على التفسير(٤). والسؤال الذي يطرح نفسه بعد هذا المهاد التاريخي اللغوي عن أهمية اللغة العربية وقداستها، وكونها في الجاهلية والإسلام كانت وما زالت وإلى اللحظة الحاضرة السياج المنيع الذي انضوت وراءه المقدسات والقيم والأعراف والتقاليد، بل والحضارة الإسلامية من أصغر جزئياتها إلى أكبر معطياتها، فما هو موقف المستشرقين منها، وهم في عمومهم وحسب انتمائهم إلى الأمم الغربية، يشكلون خطاً آخر غربي المنبت والنزعة إزاء الخط الشرقي من إسلامي وعربي، هل سيقبلون على دراسة العربية، ومعرفة أسرارها، وما لها من أثر في واحدة من أعظم الحضارات التي نشأت في العالم، والتي ما تزال تبشر بالظهور والاستمرارية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

من هنا تبدأ النقطة البحثية الأولى حول موقف المستشرقين من العربية، ولاسيما أن الناظر في سيرتهم والمتابع لإنجازاتهم العلمية يرى تلك اللحمة بينهم وبين العربية، فما هي الدوافع لذلك، وما الذي جعلهم يقبلون هذا الإقبال على لغة تُعد بالنسبة لأممهم لغة معادية لأقوام معادين وحسب، وهو ما سنعرفه في الآتي:

دوافع الاستشراق وتعلم العربية:

يرى معظم الدارسين للاستشراق أن دوافع الاستشراق هي الآتية: الدوافع النفسية، والتاريخية، والاقتصادية، والأيديولوجية، والدينية، والاستعمارية، والعلمية، وثمة دوافع ثانوية أخرى(٥).

الدوافع النفسية:

لم ينشأ الاستشراق من فراغ، وإنما كانت وراءه دوافعه ومحركاته لاستكناه الشرق، والوقوف على حقائقه ومعطياته بدءاً من الإنسان نفسه بما فُطر عليه من رغبة في المعرفة والاطلاع، ونزعة ظامئة للتعرف على حياة الآخرين وأفكارهم ولذة في تحمل المصاعب للوصول إلى ميادين مهمة، ورغبة خاصة في السفر والترحال، أو في الاطلاع على ثقافات العالم القديم، ويبدو كذلك أن فريقاً من الناس دخلوا ميدان الاستشراق طلباً للرزق عندما ضاقت بهم سبل العيش العادية أو دخلوه عندما قعدت بهم إمكاناتهم الفكرية من الوصول إلى مستوى العلماء في العلوم الأخرى، أو دخلوه تخلصاً من مسؤولياتهم الدينية المباشرة في مجتمعاتهم المسيحية.

فهذا الدافع النفسي، وما يعتمل فيه من أمور أخرى محرضة للإنسان ومحركة له لمعايشة الحضارات الأخرى، والوقوف على آثارها، والتزود من ثقافتها، وبما يمليه عليه الاطلاع على عقائد الآخرين ومقارنته بعقيدته، وكذلك التعرف على طرائق المعيشة ووسائلها المتنوعة، ومن ثم أيضاً التضلع بالثقافة الغيرية وخاصة إذا كانت ذات أبعاد ترفيهية، أو ذات سحرية أو خيالية، على نحو ما نظر الأوربيون إلى الشرق أعقاب تعرفهم على كتاب ألف ليلة وليلة، كل ذلك يدفع دفعاً لتعلم العربية، واكتساب ثقافتها ليتم لهذا المستشرق أو ذاك أمنيته بالاطلاع والمعرفة بما قد تكلفه النفس الإنسانية هانئة راضية(٦).

الدوافع التاريخية:

تأتي هذه الدوافع لتؤكد الحاجة إلى تعلم العربية وإتقانها، وذلك أن العلاقة بين الشرق والغرب لم تكن على وتيرة واحدة من التآخي والوئام بما يفيد الإنسانية جمعاء، بل كانت دائماً تأخذ اتجاهات مختلفة من حبٍّ ولقاء، وهجوم وعداء، وهدم وبناء، وإذا أمعن الناظر في التاريخ وجد الآثار الدالة على ذلك واضحة بينة، حيث حاول الشرق والغرب أن يسيطر أحدهم على الآخر، ومن الجلي أن الغرب كان عبر التاريخ أكثر هجوماً وعداءً، وأشد بطشاً وقوة وأطماعاً، وقد يرجع هذا إلى تركيبه النفسي وفلسفته الخاصة به، فإذا ما ولجنا باب التاريخ عبر علاقة الصراع المتواصلة بين الشرق والغرب، ورأينا انطلاقة الإسلام وارتقاء المسلمين وجدنا أن الصراع بينهما لم يعد بالأفكار بقدر ما صار بالسلاح، وخاصة بعد أن احتل الإسلام مكانة في التاريخ وأحدث فيه ما أحدث، وأثر في حركته تأثيراً عظيماً، فاضطر علماء الغرب إلى دراسته والبحث في كل ما يتعلق به لفهم مظاهره وأحداثه المعجزة، وقد أجبرت هذه الظروف التاريخية أولئك العلماء للبحث فيها حتى أخذوا يتساءلون: من هذا الطارق الجديد على أبواب التاريخ؟ من أين جاء؟ ولماذا؟ ماذا أراد وماذا حقق؟

وما دام قد تربع على عرش التاريخ وتفوق أصحابه على عباقرة أثينا وفلاسفتها، وخطباء روما ومؤرخيها، فيجب البحث فيه، وفيما يتعلق به من حضارة وآداب وفلسفة وأديان ولغة، ومن هنا كانت الحاجة الماسة إلى تعلم اللغة العربية، لغة أولئك القوم الذين تربعوا على عرش التاريخ، فكان ما كان من إقبال الاستشراق على دراسة العربية وفهمها وتعلمها، على أن الأحداث التاريخية الكبرى زادته إصراراً على هذا التوجه من نحو فتح القسطنطينية، وإغلاق الطرق البحرية، والتحول إلى رأس الرجاء الصالح والحروب الصليبية، والتغلغل الاستعماري الحديث. ناهيك بالتمثيل الدبلوماسي والسفارات بين البلاد العربية والغربية وكون هؤلاء جميعاً مضطرين لمعرفة لغة الآخر، وفهم ثقافته(٧).

الدوافع الاقتصادية:

وتعد من أهم الدوافع أمام كل من له دراية بالعلاقات بين الشرق والغرب، لأنها بطبيعتها تدفع الإنسان لالتماس سبل العيش عبر الأراضي والبحار في جميع بقاع العالم، وفي سبيل وصول الإنسان إلى هذا الهدف فإنه يشهر سلاحه ويستعين بقوته وبطشه ما وجد لذلك سبيلاً، يأخذ ويحتل، ويسلب وينهب ويسيطر ويستعبد ويهدم ويخرب، ويغامر بحياته وحياة الآخرين بسبب هذه الأطماع، ومن هنا تتابع الهجمات المسعورة من السيطرة على جميع مرافق الحياة في العالم العربي، ثم على العالم بأسره، ولذا كانت الدوافع الاقتصادية من أشد الدوافع إلحاحاً لاندفاع الغرب نحو الشرق، فإنها كانت

هي المحركة أيضاً لتعلم لغات الشرق ودراسة حضارته، ومن ثم كان العالم الإسلامي مجالاً اقتصادياً ذا أهمية قصوى لعدد كبير من التجار الأوربيين، والشركات الأوربية؛ لمواده الأولية وكونه سوقاً مروجة للبضائع الغربية، وتبع هذا بالضرورة اندفاع الغرب للعناية بدراسة علوم الشرق وثقافته وفلسفته ولغاته، وعلى رأسها العربية. على أن هذه الدراسات جعلت الغرب يدرك ادراكاً صحيحاً أنه إذا أراد أن يُسامي الشرق ويتفوق عليه، فليس له من سبيل آخر يوصله إلى انتزاع زمام الأمور من يده إلا بتعلم لغاته وما يتعلق بها من حضارة وعلوم(٨).

الدوافع الأيديولوجية:

وهي تلك الدوافع التي تتمثل بذلك الصراع الفكري المتواصل الذي لا يهدأ ولا يستكين، وتلك سنة الحياة التي تدفع بالإنسان للصراع حتى مع نفسه وأخيه وصديقه وعدوه وعشيرته، وحتى العالم بأسره(٩)، وتكمن هذه الدوافع في وجود أيديولوجيات مختلفة؛ أيديولوجيات الأفراد والجماعات والدول والحكومات والأجناس والقوميات، وكل منها تسعى لتفرض نفسها على غيرها وتسيطر عليه ويهدف صاحبها إلى أن يكون رئيساً والآخر مرؤوساً، وينصب نفسه سيداً، ويعيش غنياً، ويترك الفقير يموت جوعاً.

ولو أخذنا في الحسبان أن للاستشراق هدفه وفلسفته، وأنه لم يبدأ مصادفة ولا اعتباطاً بل نشأ حسب خطة موضوعة(١٠)، ووراء ذلك أيديولوجية معينة سعى الغرب لتحقيقها باستعمال كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة قانونية كانت أو غير قانونية، وهو الذي أرسى تلك الأيديولوجية المعروفة التي تبرز أعماله ومنها: «الغاية تبرر الوسيلة» و«فرق تسد» و«اقتل تعش» و«حارب تسيطر» و«اغتصب تملك» مما نجده في فلسفة ماكيا فيلي، ونيتشه، وهرتزل وغيرهم، والواقع أن هذه الأسباب الأيديولوجية الخاصة بالغرب كانت دافعاً قوياً في زحف الغرب على الشرق وتعلم لغاته وبحث آثاره ومحاربة أفكاره وأيديولوجيته الخاصة به، وهكذا فهذا الدافع يتفق مع الدوافع السابقة واللاحقة في محاولة التمكن من اللغة، ونضيف هنا، أن الغرب لما عجز عن الهيمنة الاستعمارية بالقوة والسلاح، ورأى أن الحب والتقدير الذي تحمله الشعوب لدينها وأفكارها وثقافتها لا ينتزع بالقوة والهيمنة، صار أشد حاجة إلى تعلم اللغات الشرقية عامة والعربية خاصة ليتمكن من خلالها زعزعة هذه الأواصر والسيطرة على هذه المناطق(١١).

الدوافع الدينية:

عندما جاء الإسلام وجد العالم بأسره في أزمة فكرية حادة وقلق روحي بالغ، فحاول أن يخرج الإنسان من الظلمات إلى النور، ومن الباطل إلى الحق، ومن التعصب إلى التسامح، ومن الهدم إلى البناء، ومن الفناء إلى الحياة، وسرعان ما بدأت تدوي في الأقطار كلمة «الله أكبر» وتردد في الآذان «اقرأ» ويضيء الطريق: «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم»، فبُني في قرن ما لم يبن غيره في قرون، وبدأ الناس حتى من غير أهل الشرق يتوافدون إلى مراكزه ومعاهده ليتعلموا فيها، ومن أمثالهم جرير، سكوت، وبيكون وغيرهم، جاء بعضهم ليستفيد ثم يفيد، والآخر ليتعلم ثم ليحارب ويهدم، وسواء كان هذا أو ذاك لم يكن لليهود أو النصارى من سبيل آخر إلا أن يتقبلا التحدي الكبير، ويجبرا على دراسة الإسلام ولغته وآدابه، وقد ظلت اللغة العربية لفترة طويلة لغة علم وثقافة وفلسفة وسبيلاً وحيداً للنهوض والازدهار، وبدت أقوم طريق لفهم الكتب السماوية وفلسفتها، فتسابق أصحاب الديانات الأخرى إلى تعلمها وتعليمها لمواطنيهم وذويهم، وهكذا أصبح العامل الديني دافعاً قوياً لانتشار الاستشراق في العالم؛ إذ أنشئت في الغرب المعاهد والمدارس لتعليم لغات الشرق وأديانه حتى ليرجع فضل دراسة اللغات الشرقية في الحقيقة إلى المبشرين الموفدين إلى البلاد الشرقية من قبل الباباوات، فهؤلاء كان لهم باع كبير في هذا المجال.

ويمكن للباحث أن يتساءل أكان يعلم هؤلاء العربية بسبب رغبتهم في التعرف على الكتاب المقدس ومقارنته بالقرآن الكريم فحسب، أم أنهم تعلموها لأسباب أخرى كذلك؟ إن الجواب عن ذلك يؤكد أنهم اتجهوا إلى العربية لأسباب عديدة منها أنها أصبحت لغة العلم والفلسفة ولا بد للرهبان من معرفتها للدفاع عن

العقيدة ومنع انتشار الإسلام الذي بدأ يزحف على المعاقل المسيحية، ومن هنا فكرت البابوية في روما في مواجهة هذا الزحف بالتبشير واستعادة ما يمكن استعادته وحين نسأل التاريخ عن حركة الاستشراق والتبشير كيف نشأت يلقانا الجواب الصريح أنها قامت أول ما قامت في رعاية الكنيسة الكاثوليكية(١٢).

ومن هنا يتبين أن الدوافع الدينية بكل ما فيها من قوة واندفاع كانت إحدى الأسباب الرئيسة لتعلم الغرب اللغات الشرقية عامة ولغة الإسلام خاصة، وظلت هذه اللغة بيت القصيد في نشاط الرهبان لأسباب الدفاع والهجوم، والاحتلال والاستقلال، والحرب والسلام، والتبشير والاستعمار، ومحاولة تعميد أهل القرآن(١٣).

الدوافع الاستعمارية:

وهي دون أدنى ريب تشكل النقطة الخطرة في العلاقات بين الشرق والغرب، ومحاولة الأخير السيطرة على الأول، وسحق قوته واحتلال أرضه واستغلال مقدراته، ولهذه الدوافع جذور عميقة زرعت ونبتت قبل الميلاد، ونمت بعده، وازدادت عمقاً وشمولاً مع اندفاع العرب وسيطرة الإسلام على الإمبراطوريات السابقة، ووصوله إلى أوربة، واستقراره في بعض أراضيها، وعندما رأى الغرب كل هذا شرع يعدّ قوته لخوض معركة فاصلة معه والسيطرة عليه، فأخذ يتعلم لغته وآدابه وحضارته وتاريخه لكي يتفوق عليه، ثم قام بالمغامرات الصليبية المعروفة فحارب الإسلام قروناً ولم ينتصر، ولكن عندما نجح في طرده من الأندلس لم يكتف بذلك، بل واصل استعداده لمواجهة الإسلام في عقر داره واحتلال بلاده والسيطرة عليها(١٤).

ويعترف الاستعمار نفسه أنّ أشد ما يخشاه هو الإسلام وانتشاره، لأن له قوته وجلاله وأنه الوحيد بين الأديان والمذاهب والأيديولوجيات الذي يستطيع أن يقف في طريق أطماع الغرب وسيطرته على العالم سياسياً وحضارياً ودينياً وفكرياً، ومن هنا تبرز لنا غايته وهدفه من الاستشراق.

ولما كان لا بد للغرب المستعمر من معرفة ما يمكن معرفته من أحوال هذا الشرق(١٥) «لغته وأديانه» ومداخل السيطرة عليه، التحمت دوافعه الاستعمارية بضرورات تعلم اللغة ومعرفتها إلى أبعد حد ممكن.

الدوافع العلمية:

يُعد العالم العربي كنزاً حضارياً لا نظير له في بقاع العالم الأخرى، ففيه شيدت حضارات وثقافات، ونشأت لغات وفلسفات، وبدت علوم وفنون، ونزلت شرائع وأديان، وقد أثارت هذه القيم علماء الغرب فاهتموا بدراستها واكتشاف أسرارها، وتحقيقاً لهذه الغايات السامية أيقن الغرب أنه لا بد له أولاً إذا أراد النهوض أن يدرس لغات الشرق وآدابها وحضارتها وخصوصاً حضارة الإسلام لما حققه لها الدين وأهله من أهداف سياسية واجتماعية وأخلاقية وثقافية، فأقبل المستشرقون على هذه الدراسات بنهم وشغف، وانطلق كثير منهم إلى آفاق بناءة، استفاد منها الغرب والشرق على حد سواء، ومن الحق أن الباعث على دراسة اللغات الشرقية في أول الأمر كان دينياً وحربياً إلى القرون الوسطى، ثم تحول بعد ذلك إلى أغراض علمية هدفها كشف ما تكنه العلوم والفنون الشرقية من كنوز ثمينة، وبتقدم هذه الدراسات اتصل حبل المودة بين الشرق والغرب، وتوثقت العلاقات العلمية بين الدول الشرقية والغربية وكان للمستشرقين فضل في تنبيه الأفكار بمؤلفاتهم على إدراك الحقيقة الخالدة التي طالما أنكرها الغربيون، وهي أن المدينة الأوربية الحديثة مبعثها الشرق وعلومه وحضارته وفلسفته(١٦).

مع ذلك لا ننكر وجود زخم استشراقي يؤكد أن الفضل فيما وصل إليه الغرب يعود إلى علم العرب وثقافتهم، ويصرح بعض الفرنسيين بذلك، فيقول: «إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا إنه يدين لها بوجوده نفسه»(١٧).

وهكذا تبين لنا من خلال هذه المراجعة السريعة في دوافع الاستشراق، مجموعة أو منفردة أنّ لها أثراً لا ينكر في تعلم العربية وتعليمها، والارتقاء في فهمها بما يوازي هذه الدوافع، وبما يوازي إلى حدٍّ جيد ما كانت تتحلى به العربية وآدابها ومن ثم نحوها وصرفها، وما أنتجته قرائح شعرائها، وما تركه مؤلفوها من علوم وفنون

مخطوطة هي زهو العربية وإرثها الأصيل ومجدها التليد، فإذا كانت اللغة التي تسابق المستشرقون على تعلمها ونقلها بهذا المستوى المشار إليه فهذا يعني أنهم تأهلوا للحفاظ على العربية وقد بدا ذلك بما قدموه من جهد في التدريس والتأليف والتحقيق والطبع والنشر وإنشاء الجمعيات وعقد المؤتمرات والندوات، وإصدار المجلات، وإحداث كراسي الجامعات للعربية واللغات الشرقية.

على أن متابعة المستشرقين فيما قدموه من جهد في سبيل العربية والحفاظ عليها، بأي توجه كان وعلى أي نية وجدت، من باب تقدير العرب، أو محاولة الأذية، كل ذلك لن يمنع من الاعتراف بأن الحديث في جهودهم هذه يستغرق مؤلفات كاملة وإزاء ذلك، لن نقف على كل كبيرة وصغيرة في هذا المجال وإنما سنعرض له عرضاً عاماً مقتضباً من خلال العنوان الآتي:

جهود المستشرقين في الحفاظ على العربية:

من المعروف أن جهود المستشرقين في الحفاظ على العربية فيما أشير إليه آنفاً غالباً ما احتضنته مدارسهم التابعة لدولهم كالمدرسة الفرنسية والإنكليزية والألمانية والإيطالية والهولندية والأمريكية، وقد يعوذنا البحث أولاً بأول أن نقف على كل مدرسة على حدة لنتبين من خلال أعلامها بعض الجهود والنشاطات التي قاموا بها، والتي أضفت طابعاً خاصاً على كل مدرسة، فشتان ما بين المدرسة الفرنسية والإنكليزية، وما بين المدرسة الألمانية من حيث أن المدرستين الأوليتين لم تخل من دوافع تبشيرية واستعمارية، على حين يحوط المدرسة الألمانية التوجه العلمي، وكذلك المدرسة الروسية تنحو هذا المنحى، ومهما يكن، وكيف كان التوجه، فالآتي من الحديث سيوجه الأنظار إلى جهود المستشرقين في الحفاظ على هذه اللغة بدءاً من بعض مستشرقي المدرسة الفرنسية فالإنكليزية وهكذا.

المدرسة الفرنسية:

نذكر من أعلامها فيما نذروا به أنفسهم للعناية بالعربية

- سلفستر دى ساسى (١٧٥٨-١٨٣٨م) ويعدّ عميد الاستشراق الأوربي في النصف الأول من القرن التاسع عشر، يقول السامرائي عن كتابه في قواعد اللغة العربية إنه لوّن الاستشراق الأوربي بصبغة فرنسية، وقد تنوعت اهتماماته فشملت العربية وآدابها والتاريخ والفرق والجغرافية، وكان عُين أستاذاً في مدرسة اللغات الشرقية (١٧٩٥م) ثم صار مديراً لها عام (١٨٣٣م) وهو الذي ترجم البيانات التي صدرت لدى احتلال الجزائر، وكذلك عند احتلال مصر من قبل نابليون. ونذكر من أعلام هذه المدرسة كذلك:
- ريجيس بلاشير (١٩٠٠-١٩٧٣) تخرج باللغة العربية من كلية الآداب بالجزائر، عين أستاذاً للغة العربية في معهد مولاي يوسف بالرباط، ومدير معهد الدراسات المغربية العليا (١٩٢٤) وأستاذ كرسي الأدب العربي في مدرسة العربي في مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس، وأستاذاً محاضراً في السوربون... من أبرز إنتاجه ترجمته لمعاني القرآن الكريم، وكذلك كتابه تاريخ الأدب العربي وله أيضاً كتاب (أبو الطيب المتنبي، دراسة في التاريخ الأدبي).

وثمة غيره من المستشرقين الفرنسيين البارزين بإسهاماتهم في مجال العربية وما يدور في فلكها من تاريخ ودراسات من نحو رودنسون هنري لارست، وكلودكاهن وشارل بيلا، والأب لويس جارودیه والأب لامانس وأندريه ريموند وغيرهم(١٨).

- المدرسة الإنكليزية: ونذكر من أعلامها فيما قاموا به من حفاظ على العربية:
- ديفيد صموئيل مرجليوث (١٨٥٨-١٩٤٠م) بدأ حياته العلمية بدراسة اليونانية واللاتينية، ثم اهتم بدراسة اللغات السامية فتعلم العربية، ومن أشهر مؤلفاته ما كتبه في السيرة النبوية، وكتابه عن الإسلام، وكتابه عن العلاقات بين العرب واليهود، ولكن هذه الكتابات اتسمت بالتعصب والتحيز، والبعد الشديد عن الموضوعية كما وصفها عبد الرحمن بدري، ولكن يحسب له اهتمامه بالتراث العربي من نحو نشره لكتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي، ورسائل أبي العلاء المعري،

وغير ذلك من الأبحاث، ونذكر من أعلام هذه المدرسة أيضاً:

- توماس وولكر آرنولد (١٨٦٤-١٩٣٠م) بدأ حياته العملية في جامعة كامبردج، تعلم العربية، وانتقل للعمل باحثاً في جامعة (عليكرا) في الهند، أمضى هناك عشرة سنوات وأصدر كتابه المشهور (الدعوة إلى الإسلام) وعمل أستاذاً للفلسفة في جامعة لاهور، عاد إلى لندن (١٩٠٤م) وعمل بوظائف متعددة، ومنها عضوية هيئة تحرير الموسوعة الإسلامية التي صدرت في ليدن بهولندا، ثم عمل أستاذاً زائراً في الجامعات المصرية عام ١٩٣٠م. له عدة مؤلفات ومنها (الخلافة) وشارك في تحرير كتاب تراث الإسلام في طبعته الأولى، وبالرغم من شهرته بأنه من المستشرقين المعتدلين، فإن البحث الدقيق في كتاباته تدل على أنه يشارك غيره من المستشرقين في الطعن على الإسلام بأسلوب هادئ ولاسيما في كتابه (الخلافة)، وقف على ذلك أحد الباحثين في المعهد العالي للدعوة الإسلامية في المدينة المنورة(١٩).

إن ما أشرنا إليه لا يعدد النموذج الموضح، فثمة عشرات وعشرات من المستشرقين لم نأت على ذكرهم، ويمكن أن نشير إلى بعضهم من نحو وليام بدول، وجورج سيل، وسيرهاملتون جيب، ومونتجمري وات وبرنارد لويس وسواهم، وهو ما يدفع بالبحث للولوج إلى المدرسة الألمانية.

المدرسة الألمانية:

لا بد أن نذكر بداية أن الدراسات الإسلامية في أوربة قد اصطبغت في وقت من الأوقات بالصبغة الألمانية، وقد ذكر الدكتور السامرائي أمثلة عن نشاط الاستشراق الألماني في هذا المجال من نحو العناية بالمخطوطات والتاريخ الإسلامي حيث ظهر كتاب مغازي الواقدي وبدأ تحقيق كتاب الطبري وظهرت جهود بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي، ومهما يكن فإن الآتية أسماؤهم من أعلام الاستشراق الألماني يمثلون مثل هذه التوجهات ومنهم:

- يوهان جاكوب رايسكه (١٧٧٤-١٨١٦) يعد مؤسس الدراسات العربية في ألمانيا، حيث بدأ تعليم نفسه العربية ثم درس في جامعة ليبزيج، وانتقل إلى جامعة ليدن لدراسة المخطوطات العربية فيها كما اهتم بدراسة اللغة العربية والحضارة الإسلامية، وإن كان له فضل في هذا المجال فهو الابتعاد بالدراسات العربية والإسلامية عن الارتباط بالدراسات اللاهوتية التي كانت تميز هذه الدراسات في القرون الوسطى (الأوربية)(٢٠)، ونذكر من أعلام هذه المدرسة أيضاً:
- (نولدكه، بروكلمان، وليتمان) قيل لا بد لمن يتناول الاستشراق الألماني أن لا يهمل تيودور نولدكه (١٨٣٦-١٩٣٠م) الذي اهتم بالأبحاث القرآنية إلى جانب اهتمامه بالشعر العربي القديم وخصوصاً المعلقات، وكذلك كارل بروكلمان (١٨٦٨-١٩٥٦م) الذي اهتم بتاريخ الأدب العربي، والذي نقله إلى العربية بتكليف من الجامعة العربية عبد الحليم النجار ونشرته دار المعارف في مصر في ثلاثة أجزاء، وكتاب آخر هو (تاريخ الشعوب والدول الإسلامية) ونقله إلى العربية نبيه أمين فارس، ومنير بعلبكي ١٩٥١م. ويجب ألا ننسى أن وليتمان (١٨٧٥-١٩٥٨) هو الذي ترجم كتاب (ألف ليلة وليلة) إلى الألمانية في ستة مجلدات بأسلوب رائع، وهي أول ترجمة لهذا الكتاب الهام الذي كان له تأثير كبير في أوربة(٢١).

ومهما يكن فالمستشرقون الألمان من أكثر المستشرقين إسهاماً في الحفاظ على العربية بما ألفوه، وبما كتبوه، وبما حققوه، وبما كان لهم من جمعيات ومنتديات وبما أصدروه من معجمات ومجلات ولنا أن نشير إلى أسماء بعضهم إشارة سريعة من مثل جوستاف فون جروبناوم، وجورج رنتز، ووبلغرد كانتول سميث، وباريرا ريجينا فراير ستواسر، وريتشارد بوليت وغيرهم(٢٢).

بيد أن ما ذكرناه عن نشاط المستشرقين الألمان؛ وما يأتي الذاكرون على ذكره لا يعفي من السؤال عن الدوافع الحقيقية لتوجه هذه المدرسة في أيامنا هذه إلى العناية الشديدة باللهجات العامية في البلاد العربية، مع مدارس أخرى شاركتها هذا التوجه:

المدرسة الروسية:

ويمكننا في هذه العجالة أن نشير

إلى بعض أعلامها البارزين وبعض ما قاموا به من إسهام ومحافظة على اللغة العربية، ونذكر منهم الجنرال بوجوسلافسكي الذي ترجم القرآن الكريم من العربية إلى الروسية مباشرة، ونذكر كذلك كاظم بك الذي دخل الإسلام، وقام بتحقيق مخطوطة اليعقوبي، وكذلك رازين الذي يعد متخصصاً في اللغتين العربية والفارسية ونجد أيضاً كريمسكي (١٨٧١-١٩٤١م) الذي تعلم العربية والفارسية وأسس مكتبة كبرى في جامعة موسكو.

على أن من أشهر المستشرقين الروس كراتشكوفيسكي الذي شغف منذ صغره بدراسة آراء المستشرقين ودراسة اللغة العربية، وذهب إلى الشرق فزار مصر وسورية وفلسطين، فاطلع على خزائن كتبها وتعرف إلى علمائها وأدبائها، ثم عاد إلى بلاده وعين أستاذاً للعربية(٢٣).

ويمكننا بعد هذه الجولة في مدارس المستشرقين وأعلامهم ممن كانت لهم إسهاماتهم العالية في رفد العربية ودعمها على مستويات عدة وباتجاهات متنوعة أن نقف وقفة قصيرة مع بعض ما صدر عنهم من أعمال علمية كان لها أثر كبير في الاهتمام بالعربية والحفاظ عليها على مرّ الأيام والسنين.

المستشرقون والمعجم العربي (إضاءة):

يمكننا أن نذكر هنا أن الدول الأوربية الكبرى أمثال فرنسا، وإنجلترا، وهولندا كلها اهتمت بالدراسات العربية والإسلامية، إلا أن ألمانيا تميزت من بينها بأن الاستشراق لم يزدهر نتيجة الاستعمار –كما هو الحال مع الدول المشار إليها- أو يرتبط بأهداف دينية تبشيرية كسواه بل كان يمتاز بالموضوعية والعمق، وساهم المستشرقون الألمان أكثر من سواهم بجمع ونشر وفهرسة المخطوطات، وعلاوة على ذلك فإن أهم ما قام به المستشرقون الألمان هو وضع معاجم العربية، ونذكرهم فيما يلي نموذجاً حياً لجهود المستشرقين في فرع من فروع الاستشراق، فقد وضع فرايتاغ (١٧٨٨-١٨٦١م) المعجم العربي-اللاتيني في أربعة أجزاء، ثم وضع فيشر (١٨٥٥-١٩٤٩م) معجماً للغة العربية الفصحى، ووضع أستاذي هانس فير (١٩٠٩-١٩٨١م) القاموس العربي الألماني للغة العربية المعاصرة، ووضع شراكل (١٩٢٣م) قاموسه الألماني -العربي الذي صدر عام ١٩٧٤م، وثمة القاموس الضخم للغة العربية الفصحى الذي عمل عليه أولمان (١٩٣١م) في جامعة توينغن، يقول كاتب المقال: ولما زرته سنة ١٩٨٠ كان وصل إلى حرف الكاف، واليوم وبعد عشرين سنة انتقل العمل على هذا القاموس إلى جامعة ميونخ ووصل إلى حرف الميم، وإن العمل على هذا القاموس سيستغرق مائة سنة ونيف على الرغم من الإمكانات التكنولوجية والمادية المتوافرة، وعلى الرغم أن الذي يعمل على هذا القاموس هو فريق عمل(٢٤).

وعندما نعرف ذلك ندرك كم هو عمل الخليل بن أحمد الفراهيدي، صاحب معجم العين، وابن دريد صاحب الجمهرة، والجوهري صاحب الصحاح، والفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط، وابن منظور صاحب لسان العرب، والزبيدي صاحب تاج العروس وغيرهم الكثير، كم كان عملهم معجزاً ورائعاً، يكفي ان نشير إلى أن (لسان العرب) استغرق خمسة عشر مجلداً، وأن صفحاته زادت عن ثمانية آلاف صفحة، وقل مثل ذلك في الزبيدي وغيره، ألا يستحق ذلك وقفة إجلال وإكبار للمعجميين العرب، ثم لمن سار على خطاهم من المستشرقين، وكله على طريق الحفاظ على العربية إلى أبد الآبدين.

ويمكننا أن ننتقل إلى إضارة أخرى في أهم ما عمل عليه المستشرقون لنشر العربية والحفاظ على تراثها الخالد في مختلف العلوم والفنون مما يمت إلى الحضارة العربية الإسلامية بأوشج الصلات، ونعني بذلك جهودهم في تحقيق التراث العربي الإسلامي ونشره مما سنتحدث عنه تمثيلاً وإلماعاً وليس حصراً أو استقصاءً.

المستشرقون وتحقيق التراث العربي الإسلامي ونشره (إضاءة):

لم يكن تحقيق التراث العربي الإسلامي طفرة في تاريخ علوم البشرية، أو ظاهرة مجتثة الأصول، بل هو عند التحقق والتثبت جهد إنساني علمي جبار بدايته ما خطه العرب منذ فجر التدوين من علوم متنوعة شملت

العربية وآدابها والدراسات الإسلامية ثم علوم الأنساب، والعلوم الإنسانية الأخرى من تاريخ وجغرافية ورحلات ثم العلوم الكونية من طب وتشريح وصيدلة، ورياضيات وفلك، وبحارة وسوى ذلك، وهو على وجه الحقيقة لم ينته بعد، طالما أن رفوف المكتبات في كل أنحاء العالم تضج بمخطوطات العرب وعلومها، وعلى العموم بدأ الاهتمام بالتراث العربي الإسلامي في العالم العربي بأوقات متقاربة، وكانت الخطوة الأولى جمع هذا التراث لأنه يعبر عن تقدم حضاري راق، وقد لا نملك تاريخاً محدداً لعمليات جمع هذا التراث، مع وجود دلائل توية تؤكد أن هذا الاهتمام يرتبط ارتباطاً وثيقاً بإنشاء المجمع العام للكنائس الشرقية والرومانية الكاثوليكية في فلورنسا ١٤٣٩م(٢٥) إذ تبع ذلك جمع المخطوطات وكانت هي الخطوة الأولى في جهود المستشرقين لتحقيق هذا التراث، ويمكن أن ننوه بما تحدث عنه الدكتور عباس محمد حسن سليمان في كتابه «جهود المستشرقين في تحقيق التراث العربي الإسلامي ونشره» من أن جمع المخطوطات جرى على قدم وساق في أوربة عامة، بداية في فرنسا زمن الملك فرانسوا الأول (١٥١٥-١٥٦٠م) (ص٢٨) ثم في إنجلترا (ص٤١) وفي هولندا (ص٥٢) وفي النمسا (ص٧٧) وفي ألمانيا (ص٦١) وفي مناطق متفرقة من أوربة (ص٦٦) وفي الدنمارك (ص٦٨) وفي السويد (ص٦٩) وفي روسيا (ص٧٢) وفي الولايات المتحدة (ص٧٦).

ومهما يكن فالكتاب حوى معلومات قيمة عن المخطوطات التي جمعت من العالم العربي والإسلامي ومن قام بهذا الدور من أمراء وملوك وحكومات ومستشرقين كثر توجهوا مثل هذا التوجه.

ومما لا شك فيه أن هذه المخطوطات المجموعة، كان السبيل لبدء عمليات التحقيق التي لم تكن في أول الأمر ذات منهج علمي دقيق، وإنما بالتدرج وصل المستشرقون إلى منهجية علمية رائعة في التحقيق، وللتدليل على بعض أعمالهم في هذا المجال نقتطف بعض النماذج والأمثلة المشيرة لذلك والمؤكدة لدورهم في الحفاظ على العربية من جهة من ثم نشرها من جهة أخرى، ونقطة البدء:

- لويس أميلي سيديو: مستشرق فرنسي ولد في باريس ١٨٠٨ وهو الابن الثاني للمستشرق والفلكي جان جاك أميلي سيديو (١٧٧٧-١٨٣٢م) تعلم على أبيه اللغات الشرقية والرياضيات، وعينه دى ساسى سكرتيراً لمدرسة اللغات الشرقية، وُلِع بمنهج أبيه العلمي وأراد أن يتمه، قام بنشر رسالة أبي الحسن التي ترجمها أبوه وتقع في مجلدين وما كتبه ابن يونس، وأبو الوفاء في العلوم الرياضية، وتحقيق النص العربي لكتاب «جامع المبادئ والغايات في علم المقيات» لأبي علي المراكشي، ونبذة في الهندسة لابن الهيثم، والجبر عند العرب، وما أخذه الفرنجة من العرب، وكتابة القسم الخاص بتاريخ الفلك عند المسلمين وكتب بحثاً في الآلات الفلكية عند العرب، وسوى ذلك(٢٦).

- فرانز فيكة (١٨٢٦-١٨٦٤): مستشرق ألماني، تفرغ في جامعة برلين لدراسات الرياضيات، وقد لفتت انتباهه الرياضيات عند العرب، ولما التقى جورج فلهلم فريتاخ في بون علمه العربية وحببها إليه، واتجه فيها نحو رياضياتها وكان مخطوطاً ومما قام بتحقيقه هو «براهين الجبر المقابلة» لعمر الخيام استناداً إلى ثلاث مخطوطات، وترجمه إلى الفرنسية ونشره (١٨٥٠م) وفي عام (١٨٥١م) قام بتحقيق كتاب «الجبر والمقابلة» للخوارزمي ونشره، وكان ترجمه إلى الفرنسية، وقد نَشَر معه عدة مستخرجات من مخطوطات غير منشورة لعلماء الجبر العرب والمسلمين، وحقق أيضاً رسالة النيسابوري في البراهين على مسائل الجبر والمقابلة، وحقق رسالة «البركار» لمحمد بن الحسين وترجمها إلى الفرنسية وسوى ذلك كثير(٢٧).

- مارسلان بوتلو (١٨٢٧-١٩٠٧م) من كبار الكيميائيين الغربيين، وضع أسس البحث العلمي الصحيح بعيداً عن خرافات العصر الوسيط، ألف كتاباً عن الكيمياء، مجلده الثالث هو القسم العاشر من كتاب الفهرست لابن النديم، وتركز جهوده في تحقيق التراث العربي على إخراج رسائل جابر بن حيان الكيميائية وغيرها.

ونذكر من الكتب العربية التي شاعت في أوربة وتداولها الأوربيون

نشراً وترجمة ودرساً وتدريساً (الجبر والمقابلة) لابن موسى الخوارزمي ٢٣٥هـ، وكتاب جوامع علم النجوم والحركات السماوية لأحمد بن محمد الفرغاني، وكتاب النبات لأحمد بن داوود أبو حنيفة الدينوري(٢٨٢هـ).

وكتاب «الحصبة والجدري» لأبي بكر زكريا الرازي ت(٣١٣هـ)، وكتاب «الجراحة» لأبي القاسم خلف الزهراوي ت(٤٠٤)هـ وغيرها(٢٨).

وفي الختام

لا يعدو ما ذكرناه في أثناء هذا البحث التمثيل والشواهد القليلة عن النشاط الاستشراقي للغرب في مجال تعلم العربية وتعليمها وفي مجال العناية بها والحفاظ عليها، تحدثنا عن الدوافع التي هيأت تربة صالحة جداً للإقبال على العربية وتعلمها بدءاً من الإنسان نفسه في نزعته الظامئة للمعرفة والاطلاع (الدوافع النفسية) مروراً بالدوافع التاريخية فالاقتصادية فالأيديولوجية فالدينية فالعلمية، ثم الاستعمارية على أن أي وقفة درسية مع هذا الدافع أو ذاك تبين بقوة عن ذاك التداخل المعنوي بين الدافع ومدى تأثيره وتغلغله في فرض تعلم العربية وتعليمها، ومن ثم تدريسها والتأليف بها وسوى ذلك، مما سوغ للبحث الانتقال إلى خطوة جديدة وهي الحديث عن جهود المستشرقين في الحفاظ على العربية في مجالات كثيرة، ومنها صنع المعاجم العربية الفصحى وسواها من المعاجم ثنائية اللغة، ومنها أيضاً جهود المستشرقين في جمع المخطوطات العربية وتحقيقها، وما تبع ذلك من نشر للتراث العربي الإسلامي العلمي والأدبي على حد سواء، على أن الباحث لم يغفل الإشارة اللازمة لخروج بعض المستشرقين عن الخط العلمي، وها هو ذا يختم موضوعه بالتساؤل عن توجه كثير من المستشرقين (ولاسيما الألمان منهم) إلى العناية بالعامية واللهجات المحلية، مدوناً ذلك بخط واضح: لِمَ؟!.

حواشي البحث ومراجعه

١- للسيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ) والكتاب طبع مصر ١٣٠٦هـ.

٢- للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) والكتاب طبع مصر ١٩٧١م.

٣- يُنظر الإعجاز البياني، ص٢٧٤، وقول عمر هذا أوردته د.عائشة في شرح السلاوي لمنظومة ابن الونان المغربية، وهي أرجوزة شعرية، وهي مما يفتخر به الأدب المغربي الإسلامي.

٤- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان: ص١٣٥.

٥- سمايلوفتش، أحمد: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، طبع دار المعارف، مصر ١٩٨٠م، ص٤٠ وما بعدها، وينظر النملة، علي بن إبراهيم: ظاهرة الاستشراق، طبع الرياض ٢٠٠٣م، ص٤٥ وما بعدها.

٦- سمايلوفتش، أحمد: فلسفة الاستشراق ص٤٠.

٧- المصدر السابق، ص٤٣.

٨- المصدر السابق، ص٤٥.

٩- الندوي، أبو الحسن، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، طبع دار الندوة للتوزيع، لبنان ١٩٦٨م، ص١٩٥.

١٠-سمايلوفتش، أحمد: فلسفة الاستشراق ص٤٧، وينظر الشرباصي، أحمد: التصوف عند المستشرقين، ص٩.

١١-سمايلوفتش، أحمد، فلسفة الاستشراق ص٤٦-٤٨.

١٢-جبرا، يوسف: تاريخ دراسة اللغة العربية في أوربة، طبعة القاهرة ١٩٢٩م، ص٧.

١٣-سمايلوفتش، أحمد: فلسفة الاستشراق ص٤٨.

١٤-المصدر السابق، ص٥٠.

١٥-زكريا، هاشم زكريا: المستشرقون والإسلام، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٩٦٥م، ص٣٠.

١٦-سمايلوفتش، أحمد: فلسفة الاستشراق ص٥٠، وينظر الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، محمد البهي، ص٢٣٣.

١٧-عاشور، سعيد عبد الفتاح: الحضارة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية، النهضة المصرية ١٩٦٣م، ص١٢٨.

١٨-ينظر في هذه المدرسة: www.madinacenter.com

١٩-الموقع السابق نفسه.

٢٠-الموقع السابق نفسه.

٢١-صحيفة الحياة، العدد ١٣ نقلاً عن موقع إسلام ويب.

٢٢-www.madinacenter.com
٢٣-موسوعة ويكيبيديا
٢٤-صحيفة الحياة، العدد ١٣ نقلاً عن موقع إسلام ويب.
٢٥-سليمان، عباس محمد حسن: جهود المستشرقين في تحقيق التراث العربي الإسلامي ونشره، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٧ن، ص٢٠.
٢٦-المصدر السابق، ص١٠٤ وما بعدها.
٢٧-المصدر السابق، ص١٠٧ وما بعدها.
٢٨-المصدر السابق، ص١٣١، ص١٥١.